

المدن والحواضر الأندلسية من خلال الشعر الدكتور/ عبد الواحد عبد السلام شعيب*

تتعدد المادة المصدرية لدراسة تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، فمنها كتب التاريخ العام، والحواليات، وكتب التراجم والطبقات، والسير والمناقب، وكتب الجغرافيا والرحلات، وكتب الحسبة، والنوازل والفتاوي الفقهية، والمصادر الأدبية. غير أن تداخل فروع المعرفة خلال الفترة الوسيطة، قد أكسب المؤرخين الأندلسيين بخاصة، ثقافة واسعة أهلتهم للتمكن من عدة علوم إلي جانب التاريخ - كعلم الحديث، والنحو، واللغة، والبلاغة، والأدب، والشعر وغيرها. لذلك اشتملت كتابات هؤلاء على مادة علمية متعددة المناحي والاتجاهات. وهكذا فبالنسبة لدراسة تاريخ وآثار المدن والحواضر الأندلسية على وجه الخصوص، فإن النصوص الأدبية والداوين الشعرية تمدنا بمادة جد مهمة، وقلما نتوفر عليها في المصادر والمضان الأخرى.

وقد تم تقسيم هذه المداخلة إلي المحاور التالية:

- ١- العاصمة الأندلسية قرطبة وملحقاتها.
- ٢- مدينة إشبيلية وقصورها العبادية.
- ٣- بلنسية مدينة الحسن والجمال.
- ٤- معالم طليطلة ومثيلاتها من خلال شعر الرثاء.

أولاً: العاصمة الأندلسية قرطبة وملحقاتها:

كثيراً ما لجأ المؤرخون إلي تأكيد خبرهم التاريخي عن طريق الشعر كمعضد له، وذلك نظراً للوشائج القوية والعلائق المتينة التي تربط بين هذين الفنين لا بل إن العديد من المؤرخين والإخباريين المسلمين على طول الفترة الوسيطة بخاصة كانوا قد جمعوا بين التاريخ والأدب سواء المنظوم منه أم المنثور. وهذا هو ما جعل كتابات هؤلاء تزخر بالمادة الشعرية التي تحتوي علي معلومات تاريخية في غاية الأهمية، ولا نتوفر عليها في النصوص التاريخية ذاتها التي سجلت الأحداث والوقائع المختلفة. إذ أن ابن خلدون قال في تعريفه للشعر: "واعلم أن فن الشعر من بين الكلام، كان شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم"^(١)

ولما كانت الأشعار والقصائد التي أرخت للمدائن في الأندلس ومعالمها المختلفة كالمساجد والقصور والمنيات والمنتزهات وغيرها تعج كثرة لذا فإننا سنجتزئ بعضاً

* أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بقسم التاريخ - بكلية الآداب - جامعة الفاتح طرابلس - ليبيا

(١) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٣.

منها كنماذج واستدلال على ما نقول. فمن ذلك ما قاله العالم المفسر أبو محمد عبد الحق بن عطية في وصف معالم مدينة قرطبة حين قال:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أعظم شيء وهو رابعها (٢)

ومنها قول الشاعر في الكتاتيب التي بناها الخليفة الحكم المستنصر لتعليم أبناء الفقراء والمعوزين بالعاصمة قرطبة:

وساحة المسجد الأعلى مكلة

مساجد لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك يا خير تاليها وواعيها (٣)

ولقد اشتهرت قرطبة من بين العواصم الإسلامية بكثرة مساجدها ولذلك يقول أبو عبيد البكري الذي عاش في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي (ت ٤٨٧هـ): "وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصى وضبط أربعمائة وواحد وتسعون مسجداً" (٤) ولم يكتف المؤرخون بذكر الأشعار التي وصفت بناء هذه المساجد أو الزيادات التي أضيفت عليها وحسب، بل أرخ بعضهم للحدث أو الواقعة بالشعر نفسه أحياناً. كما جاء عند أحمد الرازي (ت ٣٤٤هـ) في الزيادة التي أضافها الأمير عبد الرحمن بن الحكم على المسجد الجامع بقرطبة فقال: "وكان المشروع في هذه الزيادة سنة أربع وثلاثين ومائتين، وقد ذكر هذا أمير بن المثنى في شعر له مدح به الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقال:

بنيت لله خير بيت: يخرس عن وصفه الأنعام

حج إليه من كل أوب: كأنه المسجد الحرام

كأن محرابه إذا ما: حف به الركن والمقام

كأنما الناس إذا تراكوا: عليه واستزاد الزحام

شرب حمام وردن جيشاه: واضطربت حوله الحمام

كأنما ما به بنته: بناته عسجد وسام

(٢) المقرئ: نفخ الطيب ٦١٦/١.

(٣) ينظر ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٤٠، ٢٤١. ويقول ابن حيان في هذا الصدد:

أنفذ الخليفة - أي الحكم - تحسيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين

كان اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة... فعظمت به المنفعة وجلت المنقبة"

ابن حيان: المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ٢٠٧.

(٤) البكري: المسالك والممالك ١/٩٠١.

ما بالعراقيين منه عدل: ولا بنت مثله الشمام
لم يبين شدواه منذ كانت: جن سليمان والسلام
أما بالنسبة لملاحقات قرطبة وضواحيها فمنها مدينة الزهراء التي اختطها الخليفة عبد
الرحمن الناصر في الشمال الغربي من العاصمة قرطبة، وقد أكثر الأندلسيون في
وصفها وعظم النفقة عليها وقول الشعراء فيها وصنفوا في ذلك تصانيف وقال أبو الوليد
بن زيدون يذكر الزهراء ويتشوقها:

ألاهل إلي الزهراء أوبة نازح
تقضت مبانيتها مدامعه سفحاً
مقاصر ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أتناها صباحاً
يمثل قرطبيها لي الوهم جهرة
فقتبها فالكوكب الرحب فالسطحا(٥)

وقال أيضاً:

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسم إعتلال في أصائله
كأنما رق لي فاعتل إشفاقاً
والروض عن مائة الفضى مبتسم
كما شقتت عن اللبات أطواقاً
ورد تآلق في ضاحي منابته
فازداد منه الضحى في العين إشراقاً(٦)
أس ينافحه نيلوفر عقب

وسنان نبه منه الصبح أحداقاً(٧)
وعلى ذكر مدينة الزهراء، فإن ابن الفرضي يمدنا بنص قيم عن القناة المائية العجيبة
التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر أيضاً في الغرب من قرطبة سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م
جاء فيه قوله: "وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بناء القناة الغربية الصنعة، التي
جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلي قصر الناعورة، غربي قرطبة، في المناهر
المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجرى ماؤها بتدبير عجيب، وصنعة محكمة إلي بركة
عظيمة عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما
صور الملوك في غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد،

(٥) يا قوت الحموي: معجم البلدان ١٦١/٣.

(٦) المقرئ: نفع الطيب ٢٠٩/٤ و ٢١٠.

(٧) المقرئ: نفع الطيب ٢١٠/٤.

يجوز هذا الماء إلي عجز هذا الأسد، فيمجه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه، وروعة منظره" (٨).
ومن المعالم الشهيرة للعاصمة الأندلسية قرطبة المنيات والمنتزهات مثل منية الرصافة التي بناها عبد الرحمن الداخل تخليداً لذكرى رصافة جده هشام بن عبد الملك ببلاد الشام، ومنية عجب، ومنية جعفر، ومنية الخياطين ومنية كنتش وغيرها.
بيد أن منية كنتش الأخيرة هذه هي التي بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط قد أكثر الشعراء في صفها والثناء عليها، حتى أمدونا بمادة تاريخية لم نعثر عليها في النصوص النثرية التي أرخت لها.
ولعلنا نجتزئ بعضاً من الأبيات الشعرية الكثيرة التي قيلت فيها فنتمثل بأبيات للشاعر مؤمن بن سعيد التي منها:

مجالس يرضى العين إفراط حسنها
كأن حناياها حواجب خرد
على عمد للدر أبحار بعضها
وأبشار بعض حسنها للزبرجد
ولايسة وشياً كأن دقيقة
دقيق الهاشمي العتيق المنضد
وأخرى مقاناة البياض بحمرة
كجمر الغضى في لونه المتوقد
على قاعدات بعضها فوق مرمر
وبعض على مسنون صرح ممرد
تري كنتش الزهراء تزهي بقصرها
ويخال منها كل مغنى ومعهد (٩)

وفيما يختص بمباني قصر الزهراء فإنها اشتملت كما يقول ابن حيان على أربعة آلاف سارية، وأن مصاريع أبوابها الصغيرة والكبيرة كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه (١٠).
غير أنه من جهة أخرى فإن الشعراء الأندلسيين لم يقتصروا على ووصف معالم ومحتويات مدن وحواضر بلدهم وحسب بل تعداه إلي وصفهم لما حل بها من الخراب والدمار والتفجع على ما كانت عليه من الحسن والبهاء.
فهذا ابن حزم الذي جمع بين التاريخ والأدب والشعر - فضلاً عن بعض العلوم الأخرى - أنشد في رثاء مدينة قرطبة من جراء الخراب والدمار اللذين حلا بها بسبب الفتنة فقال:

(٨) ابن الفرضي براوية المقرئ: نفح الطيب ١/٥٦٤ و ٥٦٥.

(٩) ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود على مكي ص ٣٣٧ و ٣٣٨.

(١٠) ينظر ابن حيان براوية المقرئ: نفح الطيب ١/٥٦٦.

خلاء من الأهلين موحشة قفرا
ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
ولو أننا نستطيع لكنت لنا قبرا
تدمرنا طوعاً لما حل أو قهراً
سقتك الغواذي ما أجل وما أسرا
وصيد رجال أشبهوا الأنجم الزهراء
لعل جميع الصبر يعقبنا يسرا
وصلنا هناك الشمس باللهو والبدرا
على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

سلام على دار رحلنا وغودرت
نراها كأن لم تغن بالأمس بلقماً
فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا
ولكن أقداراً من الله أنفدت
ويا خير دار قد تركت حميدة
كأنك لم يسكنك غيد أو انس
سنصبر بعد اليسر للعسر طاعة
فيارب يوم في ذراها وليلة
سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا

(١١)

ثانياً: مدينة إشبيلية وقصورها العبادية:

كانت إشبيلية على أيام ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من أهم دول الطوائف قاطبة وأقواها (١٢)، ويرجع الفضل لأmirها المعتمد بن عباد الفضل في الاستتجاد بالمرابطين في العدو المغربية، كما أنه بحق يعد بطل معركة الزلاقة الشهيرة التي انتصر فيها المرابطون على قوات ملك قشتالة وليون ألفونس السادس سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م.

ولما كان المعتمد بن هذا شاعراً كبيراً، لذا فإنه ضمن شعره الغزير مادة تاريخية مهمة تتعلق بالتعريف بقصوره ومنتزهاته ومجالسه في عاصمته إشبيلية وفي المدن التابعة لها، الأمر الذي لم نجد له ذكراً في العديد من المصادر الأخرى.

فمن قصوره التي عرفنا بها في قصائده، الحصن الزاهر، الذي يصفه صاحب (قلائد العقيان) بقوله: " وكان الحصن الزاهر من أجل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالشجر والزيتون، وكان له به من الطرب والعيش المزرى بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبنى حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان. وكان كثيراً ما يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما استند إليه الزمان بعدوانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحن إلا إليه، ولم يتمن إلا الحلول لديه فقال(١٣) - أي المعتمد لما أصبح أسيراً بأغمات في المغرب:

غريب بأرض المغربين أسير: سيبكي علين منبر وسرير

(١١) ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص ٣١٢ و ٣١٣.

(١٢) ولهذا يقول عنها شاعر المعتمد ابن اللبانة: وكعبة كانت الآمال تخدمها : فاليوم لا عاكف فيها ولا بادي.

ينظر الفتح بن خاقان: قلائد العقيان: ص ٦٧

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

وتندبه البيض الصوارم والقنا:
 وسيبكيه في زاهيه والزاهر الندى: وطلابه والعرف ثم نكير
 فياليت شعري هل أبيتن ليلة:
 أمامي وخلفي روضة وغدير
 بمنبئة الزيتون مورثة العلى:
 يغني حمام أو ترن طيور
 بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا:
 تشير الثريا نحونا ونشير
 ويلاحظنا الزاهي وسعد سعوده:
 غيورين والصب المحب غيور (١٤)
 كما أن من قصور المعتمد في إشبيلية التي أشار إليها في أشعاره، قصر المبارك الذي
 يقوله فيه:

بكى المبارك في إثر ابن عباد:
 بكت ثرياه لا غمت كواكبها:
 بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته:
 ماء السماء على أفيائه درر:
 ثم هناك قصر الشراحيب بمدينة شلب في غرب الأندلس والتي كانت تابعة لدولة بني
 عباد في إشبيلية على أيام دول الطوائف إذا جاء فيه قوله:
 ألا حي أوطاني بشلب أبابكر:
 وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
 وسلم على قصر الشراحيب عن فتى:
 له أبداً شوق إلي ذلك القصر
 منازل آساد وبيض نواعم:
 فناهيك من غيل وناهيك من خدر
 وبيض وسمر فاعلات بمهجتي:
 فعال الصفاح البيض والأسل السمر
 والمقصود بأبي بكر هنا شاعره ووزيره أبو بكر بن عمار، الذي صاحبه هناك فترة في
 شبابه.

وهكذا فإن شعر المعتمد بن عباد يعد من الوثائق المهمة في دراسة وآثار بني عباد في
 إشبيلية زمن الطوائف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ثالثاً: بنسبة مدينة الحسن والجمال:

تعد عاصمة الشرق الأندلسي بنسبة من أجمل المدائن الأندلسية على الإطلاق،
 إذ أكثر الشعراء والأدباء في وصفها والتغنى بحسنها وجمالها فمن أمثلة ذلك قول
 الحجاري صاحب (المسهب) فيها بأنها: "مطيب الأندلس، ومطمح الأعين والأنفس، قد
 خصها الله بأحسن مكان، وحفها بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياه تتفرع، ولا تسمع
 إلا أطياراً تسجع، ولا تستنشق إلا أزهاراً تتفج، وما أجلت لحظاً بها في شيء إلا قلت
 هذا أملح، ولها البحيرة التي تزيد في ضياء بنسبة صحو الشمس عليها وجوها صقيل
 أبداً، لا ترى فيه ما يكدر خاطراً ولا بصراً، لأن الجنان والأنهار أحذقت بها... وهواؤها

(١٤) المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص ١٧٢. الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص ٧٠.

(١٥) قلائد العقيان، ص ٦٩. نفح الطيب ٢٧٤/٤.

(١٦) المقرئ: نفح الطيب ٢٧٤/٤.

حسن لتمكنها من الإقليم الرابع، وأخذها من كل حسن بنصيب، ولها البحر على القرب، والبر المتسع، وحيث ما خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازره ومسارح" (١٧).

ومن الأشعار التي تؤكد ما قاله الحجاري في هذا النص:

بلنسبة إذا فكرت فيها: وفي آياتها أسنى البلاد

وأعظم شاهدي منها عليها: بأن جمالها للعين بادي (١٨)

كساها ربنا ديباج حسن: له علمان من بحر ووادي (١٩)

وقول الشاعر كذلك:

كأن بالنسبة كاعب: وملبسها السندس الأخضر

إذا جنتها سترت نفسها: بأكامها فهي لا تظهر (٢٠)

أما شاعرها اللبيب الرصا في فقد قال في وصفها:

بلنسبة تلك الزبرجدة التي: تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا

كأن عروساً أبدع الله حسنها: فصير من شرح الشباب لها عمرا

تؤبد فيها شعشعانية الضحى: إذا ضاحك الشمس البحيرة والنهرا

هي الدرة البيضاء من حيث جنتها: أضاءت ومن للدر أن يشبه البدرا (٢١)

وهكذا تبين لنا هذه النصوص الشعرية مدى ما حظيت به مدينة التراب (٢٢) بلنسبة كما

تسمى من الجمال والبهاء، وتفردتها من بين مدن الأندلس بهذه الخاصة، والميزة

العظيمة، والتي يمكن من خلالها أن نسميها عروس الأندلس دون تردد.

رابعاً: معالم طليطلة ومثيلاتها من خلال شعر الرثاء:

هناك كم هائل من الشعر قيل في سقوط المدن والحواضر الأندلسية الواحدة تلو

الأخرى، واصطاح على تسميته في الأدب الأندلسي باسم بكاء المدن أو رثاء المدن،

وذلك بسبب الظروف السياسية التي ألمت بشبه الجزيرة الإيبيرية منذ سقوط الخلافة

الأموية سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م، وانقسامها إلي ممالك ودويلات صغيرة على أيام

الطوائف في القرن الخامس الهجري وحتى سقوطها نهائياً في أيدي النصارى سنة

٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م. (٢٣)

ولما كانت طليطلة وهي العاصمة القديمة للقوط - من أمنع وأحصن المدن الأندلسية

قاطبة، لذا فإن سقوطها في يد ألفونس السادس ملك مشتالة وليون سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م

(١٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٢/٢٩٧ و ٢٩٨.

(١٨) ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٠٨.

(١٩) بن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٠٨.

(٢٠) المصدر نفسه والصفحة: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/٤٩١.

(٢١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٢/٢٩٩.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٢٩٨.

(٢٣) ينظر محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص ٣٠٧.

قد أفزع الأندلسيين وأشعرهم بأن أيامهم في شبه الجزيرة الأيبيرية أضحت معدودة، ولهذا قال في سقوطها أحد الشعراء:

يا أهل أندلس شدوا رواحلكم: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا: كيف الحياة مع الحيات في سفت (٢٤)

لذلك كثرت الأشعار التي نظمت في رثاء هذا الصرح الكبير والتفجع على ما كان يحتويه من مساجد ودور ومعالم حضارية. ومن أشهر القصائد التي صورت هذا الحدث، قصيدة لشاعر مجهول جاء فيها:

لتكلك كيف تبتسم الثغور: سرورا بعدما سببت ثغور
لقد قصمت ظهور حين قالوا: أمير الكافرين له ظهور
طليلة أباح الكفر منها: حماها، إن ذا نبأ كبير
فليس مثلها إيوان كسرى: ولا منها الخورنق والسدير
محسنة محسنة بعيد: تناولها ومطلبها عسير
وكانت دار إيمان وعلم: معالمها التي طمست تنير
فعدت دار كفر مصطفة: قد اضطربت بأهلها الأمور
مساجدها كنائس أي قلب: على هذا يقر ولا يطير
أديلت قاصرات الطرف كانت: مصونات مساكنها القصور (٢٥)

وفيما يتعلق بسقوط بلنسية في يد المغامر القشتالي السيد القنبيطور فقد قيلت فيه أشعار كثيرة تندب هذه المدينة، وتصف كيف أصبحت أطلالاً بسبب الخراب والدمار الذين حلا بها على يد هذا الطاغية، خاصة وأن بلنسية قد فقدت الكثير من سكانها إما بالموت أو الهجرة من جراء هذه المأساة المروعة (٢٦). وفيها يقول شاعرها ابن خفاجة: (٢٧)

عانت بساحتك العدا يا دار: ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنبك ناظر: طال اعتبار فيك واستبعاد
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها: وتمخضت بحرأيها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرضاتها: لا أنت أنت ولا الديار ديار
وعلى إثر فتح مدينة ببشتر المنبوعة على يد عبد الرحمن الناصر وافتكاكها من الثائر
عمر بن حفصون يقول أحد الشعراء:
أحقاً خضوع المعقل المتجبر

(٢٤) المقرئ: نفع الطيب ٨٤/٦.

(٢٥) المقرئ: نفع الطيب ٤٨٣/٤ - ٤٨٦ ابن سعيد: المغرب في خلى المغرب ٢١/٢.

(٢٦) ينظر عبد الواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص ٩٠.

(٢٧) ابن بسام: الذخيرة ١/٣ ص ١٠٠ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، (عصر الطوائف والمرابطين)، ص ١٨٧.

وفتح أمين الله حصن ببشتر

كفى خبراً مستشنعاً من مخبر

وحسبك بشرى أعظمت من مبشر (٢٨)

وقوله: جلت ظلمات الكفر عنها فأشرققت

ولاحت عليها شمسها وبدورها (٢٩)

لكن من اللافت للانتباه فإن الشعراء الذين نظموا العديد من القصائد والأشعار تفجعاً وبكاء على المدن الأندلسية التي سقطت في يد العدو النصراني كل على حدة، فإن بعضهم قد أنشد قصائده في البكاء على الأندلس بكامله مثل مرثية أبي البقاء الرندي ونونيته الشهيرة، وكذلك سينية ابن الأبار البلنسي وإن كانت الأخيرة قد سبقت سقوط الأندلس بكثير على عكس نونية الرندي التي نظمت بعد خروج المسلمين من هذا الفردوس المفقود. إذا يقول الأخير هذا:

لكل شيء إذا ما تم نقصان:

فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول:

من سره زمن ساءته أزمان

فجائع الدهر أنواع منوعة:

وللزمان مسرات وأحزان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له:

هوى له أحد وأنهد ثهلان

فاسأل بلنسبة ما شأن مرسية:

وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم:

من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه:

ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما:

عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفة البيضاء من أسف:

كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية:

قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنانس ما:

فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكى وهي جامدة:

حتى المنابر ترثى وهي عيدان (٣٠)

وتعد نونية الرندي هذه من أشهر القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس واليكاء عليها. أما سينية ابن الأبار فقد قالها أثناء حصار ملك برشلونة لمدينة بلنسبة مستعنياً بصاحب إفريقية أبي زكرياء بن أبي حفص، ومن أبياتها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا:

إن السبيل إلي منجاتها درسا

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم:

ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسماً:

جدلان وارتحل الإيمان مبتسماً (٣١)

(٢٨) ابن حيان: المقتبس نشر شالميتا وكورينطي، ص ٢٢٠.

(٢٩) المصدر نفسه والصفحة.

(٣٠) المقرئ: نوح الطيب ٤/٤٨٧.

(٣١) المصدر نفسه ٤٥٧.

فمن دساكر كانت دونها حرساً: ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً: وللنداء غدا أثناءها جرسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً: وأين عصر جليناه بها سلساً^(٣٢)
وأخيراً بعد هذا العرض المتواضع لموضوع: (المدن والحواضر الأندلسية من خلال
الشعر) يمكن أن نجل أهم الخلاصات في النقاط التالية:
- يعتبر علم التاريخ علم متداخل مع بعض العلوم الأخرى كالأدب والشعر والحديث
واللغة والنحو والجغرافيا والاجتماع والفلسفة وغيرها.
- إن المصادر الأدبية مثل كتب تاريخ الأدب والدواوين الشعرية تعد من المصادر
المهمة التي لا يستغنى عنها أي باحث في تاريخ وحضارة المسلمين في الأندلس عبر
تاريخهم الحافل.
- وفيما يتعلق بكبار المؤرخين الأندلسيين فإن معظمهم قد جمعوا بين التاريخ والأدب
نظمه ونثره، ومن هنا جاءت كتاباتهم تعج بالقصائد والأبيات الشعرية التي تؤرخ
للأحداث والوقائع والأعلام والمدن وغيرها. ومن أمثال هؤلاء نذكر: أحمد الرازي،
وابن الفرسي، وابن حيان، وابن حزم، وابن الأبار، وابن الخطيب.
- يعد شعر الرثاء بالذات من أكثر أغراض الشعر الذي يتوفر على مادة تاريخية هامة
عن المدن والحواضر الأندلسية ومعالمها، من مساحد وكتاتيب وقناطر ومنيات
ومتنزهات وقصور ونحوها.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن بسام، علي: الذخيرة ١/٣، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا، ١٩٧٨.
- البكري، أبو عبيد عبد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بغداد (درت).
- ابن حزم، أبو محمد علي: طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار الهلال ط٢، ١٩٩٤.
- ابن حيان، أبو مروان: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٦م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣.
- ابن دحية، أبو الخطاب عمر: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، القاهرة ١٩٥٧م.
- ابن سعيد، علي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٥م.
- السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، العراق ١٩٨٠م.
- شعيب، عبد الواحد: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، دار إقرأ، ١٩٩٠م.

(٣٢) المقرئ: نفح الطيب ٤/٢٧٤.

- عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م.

- ابن عذارى، أبو العباس أحمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.